دراسة في رحلة الأمير يوسف كمال: زائر من مصر في كشمير في ١٩١٤م

أ.د. عبد الماجد قاضي[١]

الملخص

الأمير يوسف كمال بن أحمد كمال كان من الجيل الرابع لأحفاد محمد علي باشا، حاكم مصر المعروف ومؤسس مصر الحديثة، وكان من أصحاب الثراء الباهظ. كان رحالة، جاب الشرق والغرب، وهذه المقالة تسلط الضوء على رحلته الى كشمير خلال ١٩١٣-١٩١٤م وما وصف كشمير في كتبه.

الكلمات المفتاحية: كشمير، الأمير يوسف كمال بن أحمد، رحلة إلى كشمير.

الأمير يوسف كمال بن أحمد كمال كان من الجيل الرابع لأحفاد محمد علي باشا، حاكم مصر المعروف ومؤسس مصر الحديثة، وكان من أصحاب الثراء الباهظ. كان رحالة، جاب الشرق والغرب، ومولعا بالصيد ومهتما بالفن والثقافة والجغرافيا. واختير رئيسا لجامعة القاهرة. وكان من كبار أصحاب الخير والإنفاق التطوعي للنهضة التعليمية والفنون والمرافق العامة. وقد كان الأمير مشغوفا بالصيد والسياحة في البراري والأدغال، ومولعا برحلات المغامرة والاستكشاف الجغرافي، يشتد فضوله للاستطلاع عن أنماط المجتمعات البشرية بأطيافها المنوعة وطقوسها المتباينة وتقاليدها المستقلة. ومن إسهامه في أدب الرحلات كتابه " سياحتي في بلاد الهند الإنجليزية وكشمير"١٩١٣-١٩١٤م وسياحتي في بلاد التبت الغربية وكشمير"

---

١ الأستاذ في قسم اللغة العربية، جامعة الملية الإسلامية، دلهي الجديدة، الهند

وقد طبع الكتابان بمطبعة المعارف في ١٩٢٠.[١] نستعرض فيما يلي مغامراته في مجال الصيد وملاحظاته حول كشمير وطبيعتها وظروفها وأسواقها ومرافقها. ولم تكن هذه الزيارة منسقة بطريقة شخصية عادية وإنما جاءت بتنسيق أرستقراطي ورسمي على المستويين الدولي بين الأمير وحكومة الاستعمار البريطاني وبينه وبين الحكومة الدوغرية الإقليمية. فكان ضيفا للحكومة، يتعامل مع سلطاتها ورموزها مباشرة بدل أن تسمح له الظروف السياحية المفتوحة اختلاطا مباشرا مع الجماهير. ولذلك كان محاطا بمراسيم الترتيبات الإدارية.

بعد زيارته لمومبائي- ومناطق جنوبي الهند وسري لانكا وجولته في شرقي الهند من إقليم بنغال وتطوافه في شمالي الهند ووسطها كانت محطة زيارته الأخيرة منطقة أورنغ آباد حيث زار معالم النحت والنقش في كهوف إيلورا بالقرب من أورنغ آباد - استقل القطار متجها إلى كشمير عن طريق بيشاور، إذ كان مدخلها من أقصى مناطق الشمال في إقليم بنجاب. وبعد الوصول إلى بيشاور زار مضيق خيبر وجال في المناطق المجاورة ووصف وعورة الأرض وطبيعة أهلها المولعة بالقتال. سافر من هناك إلى مدينة راول بندي وبات بها ليستأنف منها رحلته إلى كشمير.

مقدمه إلى كشمير

وفي اليوم التالي استقل السيارة للسفر عن طريق جبلي ضيق كثير الإعوجاج والالتواء يمر بين جبال خضراء ووديان جميلة. وأحس بالهواء المنعش يرحب به في أحضان شواهق الجبال حتى وصل إلى مدينة أوري ونزل بمضيف لحكومة كشمير. كانت منطقة الصيد مغطاة بالثلوج وكان الجو باردا، كلفه البحث عن صيد "مار خور" الصعود والهبوط عبر طرق وعرة خطيرة أعالي الجبال وأسافل السهول،

١. زكي فهمي: صفوة العصر في تاريخ ورسوم مشاهير رجال مصر، مكتبة مدبولي القاهرة ط/ ١٩٩٥ (النسخة المصورة) ص ١٠١

ومكافحة جو بارد وقارس وأمطار وثلوج لأيام متتالية، إلى أن تيسر له صيده بعد غدوات وروحات من البحث والمطاردة. واستطاع صيد دب كذلك بعد عناء البحث. وقد تحدث عن الرجال المحليين الذين كانوا مأمورين باصطحابه وتيسير شأنه ودورهم في البحث والدلالة على أماكن وجود الحيوان المذكور، كما ذكر عن طمعهم للعطاء والبخشيش حيث يقول:" وأظن أن أعظم داع لسرورهم هو أملهم في (البخشيش) العطاء، ذلك المعبود الأعظم الذي يعبده أكثر أهل الأرض، وخصوصا أهل الهند الذين هم على ما أعتقد أكثر الناس إيمانا به" ١

وكان من جملة اهتمامه في هذه السياحة البحث عن أنواع الأشجار الموجودة في كشمير وخاصة شجرة صنوبر. وكثيرا ما يقارن بينها وبين الأنواع الموجودة في مصر. وقد ذكر لقاءه شيخا من رجال الدين الذين يلقبون ب"بير" ويمارسون نفوذهم لاستغلال عامة المسلمين. وأحس بحاجته إلى دراسة تاريخ كشمير فابتاع الكتب وشغل نفسه في القراءة، وكانت القراءة تشكل جزءا من اهتمامه خلال الرحلة.

ولدى وصوله إلى سري نغر عاصمة كشمير استقبله مسؤول حكومي بعربة من اصطبل المهاراجا. وكان مدعوا إلى مائدة العشاء مع المهاراجا، وعرف عن مضيفه أنه يلتزم باتباع التقاليد الدينية التي لا تسمح له بالمؤاكلة مع المعتنقين بغير ديانته، وأنه يحضر قبل البدء في الطعام ويخرج ثم يعود قبيل الانتهاء منه ويدلي بحديثه أمام المدعوين.٢

يشبه سري نغر التي تقع على ضفتي نهر جهلم بمشاهد الممرات المائية التي

---

١. الأمير يوسف كمال: سياحتي في بلاد الهند الإنجليزية وكشمير، حررها وقدم لها جمال ملحم، دار السويدي للنشر والتوزيع أبو ظبي والمؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ط/١ ٢٠٠٣ ص ١٥٥-١٥٦

٢. يوسف كمال: سياحتي في بلاد الهند الإنجليزية وكشمير: ص ١٧١

تجتازها القوارب بمدينة فينيسيا في إيطاليا، ولكن يستدرك بإضافة أن المنازل الخربة والآيلة إلى السقوط والأوساخ بالأزقة والكلاب، وأزياء سكان المدينة تنبه بأن لا يتمادى في الخيال لأنه في الشرق. طاف في الأسواق بحثا عن الأقمشة والشيلان، وصب من جام غضبه على التجار على سوء المعاملة والطمع. وذكر لقاءه بالمهاراجا برتاب سينغ ووصف مظهره بأنه طويل القامة، كبير السن ولكنه حسن المحيا يقول: "ولباس المهاراجا سترة تشبه ردنجوت على لباس هندي، وسراويل ضيقة تشبه البنطلون المعروف باسم جاديور من القماش الأبيض، وعلى رأسه عمامة بيضاء وفي أذنيه حلق، يتكلم الإنكليزية ولكنه لا يتقنها." ١

وتحدث عن تاريخ وجغرافيا كشمير، وكيف أن ملك جامون الدوكره ابتاع كشمير من حكومة الاستعمار الإنكليزي بخمسة وسبعين ألف روبية، وذكر المحاصيل والمزروعات وأنواع الفواكه والأنسجة الصوفية والمصنوعات الفضية والخشبية، واشتكى من تراجع صناعة الشيلان، وقد رأى في المتحف من أجمل وأغلى الشيلان، وهناك رأى شالا ثمنه ستة آلاف روبية. ٢

في أحضان الطبيعة الساحرة

وزار جشمه شاهي ذاك الينبوع الجميل وآثار بري محل وتجول في حديقتي شاليمار ونشاط، وأبدى إعجابه بجمال بحيرة "دل" وكان في هذه الفترة نازلا "بذهبية" فيها. وخرج لسياحة أجها بل، وأفاض في وصف جمال الطبيعة هناك. وكانت هذه المنطقة مصيده المرخص، وكانت فرقة كبيرة متكونة من نحو خمسمئة رجل يقومون بسوق الحيوانات في الغابة تيسيرا لمهمة الصيد له. ولكنه لم يوفق في نيل الصيد، الدب، في المصيد الجنوبي وباءت جهوده بالفشل واكتشف أن السلطات الحكومية

---

١. يوسف كمال: سياحتي في بلاد الهند الإنجليزية وكشمير: ص ١٧٣

٢. يوسف كمال: سياحتي في بلاد الهند الإنجليزية وكشمير: ص ١٧٤

هي التي عتمت عليه الحقيقة وأشارت عليه بالصيد في الغابات التي لا يوجد بها الحيوان المطلوب. يقول:" وهكذا كانت خاتمة مجهوداتنا هنالك، وقد أثبت لي هذا الأمر كثرة كذب أهالي هذه البلاد مع اختلاف طبقاتهم، فإن أولي الأمر بسري نغر ادعوا بأنهم صرحوا بالصيد في هذه الجهة، لأن النقطة التي كانت عينت لصيد الدب لم يبق بها دب.... وقد اتضح لي أن ما قالوه لي كذب محض"١ وهكذا تنبه إلى أن السلطات الحكومية كانت تماطل معه وتحاول صرفه عن عزيمته منذ بداية مراسلاته معهم، الأمر الذي أفسد كل شيء في سياق الانطباع لديه حول تجربته في التعامل مع تلك الحكومة ومسؤوليها.

وأدلى برأيه حول الوضع السياسي والأخلاقي بقوله: "وقد علمت أن نفوذ المسلمين في هذه البلاد ضعيف، وأن الإدارة والأخلاق (كما كنت سمعت ممن زاروا كشمير خصوصا، واستقبحوا أخلاق أهلها مسلمين وهندوس) محتاجة إلى إصلاح عظيم"٢

وفي طريق عودته مكث في أوري بحثا عن فرصة صيد ماراخور مرة أخرى، ولكن لم يحالفه النجاح في هذه المرة. وفي طريق عودته مر بدلهي واتجه إلى مومباي، محطة وصوله إلى الهند ومغادرته منها، ونزل بفندق تاج الأسطوري ليستأنف من هنا رحلة العودة إلى مصر بحرا. وهكذا انتهت هذه الرحلة التي استغرقت ما يزيد على ستة أشهر في شبه القارة الهندية.

---

١. يوسف كمال: سياحتي في بلاد الهند الإنجليزية وكشمير: ص ١٧٧

٢. يوسف كمال: سياحتي في بلاد الهند الإنجليزية وكشمير: ص ١٧٨